مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث ـ العدد الثاني ـ إبريل 2014م

الانثروبولوجيا البصرية وعلاقتها بالأفلام الاثنوجرافية
دراسة انثروبولوجية

د. حمدى عبد العزيز حجاج (*)

لاشك أن الانثروبولوجيا كعلم تعالج اليوم موضوعات معاصرة ذات رءوية محددة. وسوف نعرض فى هذا البحث لنشأة وتطور مفهوم الرءوية البصرية فى الدراسات الانثروبولوجية سواء أكان ذلك قديما أى منذ نشأة علم الانثروبولوجيا فى آواخر القرن التاسع عشر وصولا الى الوقت الحالى. هذه الرءوية تشير بطبيعة الحال الى المكان الذى يتم فيه التصوير من خلال البيئة التى يعيش فيها الناس بوصفها الاطار أو اللب الأساسى فى جوهر دراستنا من جهة والى الزمان الذى أخذت فيه الصورة من جهة أخرى.

فكأن الصورة ماهى الا تسجيل حى لأرضية الواقع الذى يعيش فيه الانسان من خلال سلوكياتة المختلفة. ولقد كانت البدايات الأولى لعلماء الانثروبولوجيا لتسجيل المشاهد الحية للسكان وذلك من خلال رسم الشخصيات (أى أسكتشات) وهذا ما نجده فى كتاب (أدوارد وليم لين) عن (المصريون المحدثون) وذلك عن طريق وصف ورسم الكثير من مجالات الثقافة المادية من بيوت ومبانى وآثاث وملبس وحرف وصناعات...الخ .

اذن الرءوية تتعلق بالحركة ونقصد بها حركة العينين ووسائلها الخاصة فى الابصار لتساعدنا فى التنقل من شىء الى شىء آخر من خلال المشهد البصرى .وهذا يدل على أن الانثروبولوجيا البصرية هى عملية تصوير تقوم بعملية الترجمة الثقافية وعرضها سينمائيا كما آشار بذلك كل من (بانكس Banks) و(مورفى Morphy) وذلك فى كتابهما عن الانثروبولوجيا البصرية [1].

ويمكن القول أن (مارجريت ميد) هى أول من آشارت الى الانثروبولوجيا البصرية وذلك فى كتاب الفقة والانثروبولوجيا البصرية الذى حرره (Hockings) لعام 1995وكذلك فرانز بواس عن التصوير الفوتوغرافى فى كتاب دراسات دراسات فى الاتصال المرئى والذى نشر عام 1984ثم تلاهم مجموعة من العلماء الآخرينأمثال مارك مكارثى ، جاى روبى وغيرهم [2].

والانثروبولوجيا البصرية ترتبط بعدة تخصصات أخرى لها نفس المجال مثل انثروبولوجيا الفن وانثروبولوجيا الفراغ أى دراسة الاستخدام الثقافى والاجتماعى للفراغ. والادراك البصرى والرمزية البصرية [3].

وهذا لن يتأتى فى مجملة الا من خلال دراسة الانثروبولوجيا دراسة ميدانية وفيها يقوم الباحث بتسجيل مادتة العلمية من خلال دراسته الميدانية التى يعمل على وصفها وتحليلها.

فكأن اللغة تعكس حوارا ممتعا لهذا الادراك من خلال تصويره للواقع الذى ينم عن دلالات معينة ، وعلى الرغم من ان السينما تقدم لنا المتعة والترفية والتعليم ايضا الا أن الانثروبولوجيا البصرية بمفهومها تقدم لنا توثيق وتصوير للواقع المعاش . فكأن الفيلم

(*) مدرس الانثروبولوجيا- قسم الاجتماع- كلية الآداب- جامعة القاهرة (فرع الخرطوم).

الاثنوجرافى ما هو الا توثيق للتراث قبل اندثاره . وهذا ايضا ما كان يحدث للمصريين القدماء من تسجيلهم لحياتهم المعيشية على الجدران وذلك من خلال رسوماتهم المختلفة .

وإذا كانت السينما العادية التى يشاهدها جمهور الناس بما تقدمه له من متعة وتشويق واثارة .فان السينما الانثروبولوجية تقدم الفيلم الوثائقى. أى أنها تقدم التراث الخاص بشعب من الشعوب ،من خلال معرفة تراثه الثقافى والاجتماعى .خاصة اذا مالاحظنا أن السينما العادية تختار القصة والموسيقى والممثلين الذين يؤدون أدوارهم بعناية فائقة، كما تسمح للمونتاج أن يقوم بتقطيع مقاطع الفيلم حسب رؤية المخرج.

أما السينما الانثروبولوجية فنجد الباحث فيها يقوم بدراسته الميدانية من خلال رؤيته للمكان والناس وسلوكياتهم وأفعالهم الاجتماعية دون أن يتدخل فى تقطيع أواصر الفيلم، فكأنها الميزة الخاصة بالأنثروبولوجيا البصرية دون السينما نفسها.

فالواقعية هى المطلوبة للأنثروبولوجى من خلال عملية الملاحظة حيث أن الانثروبولوجى يستبعد تماما درجة العاطفية فهو محايد تماما دون تدخل، فنجده يعرض الصورة كما هى على أرضية الواقع . فالكاميرا ما هى الا مرآة الانسان يستطيع من خلالها رؤية الواقع كما هى .اذن هى الحقيقة التى لامفر للانسان أن يعتمد عليها فكأن الفيلم الاثنوجرافى ماهو الا معايشة هذه الحقيقة .فالكاميرا هى عين الحقيقة دون جدال.

الاطار العام للدراسة :

أولا: موضوع البحث

رؤية الظاهرة الانثروبولوجية وأسلوب معالجتها تشير الى أهمية فكرة فكرة البصيرة التى تتميز بها العلوم الانسانية عن غيرها من العلوم التجريبية .والفن ابداع يستخدم فى تفسير تخيلات الانسان وفهمه لهذه التخيلات كما أنه متعه للحياة . وقدرة الانسان على استخدام الرموز . والانثروبولوجيين يهتمون بالفن كانعكاس للقيم الثقافية واهتمام الانسان بها [4].

ثانيا :أهداف البحث :

1- أن الانثروبولوجيا بما لديها من مفاهيم ومصطلحات خاصة قادرة على فهم المجتمع الانسانى بكل زواياه المختلفة، حيث ان الانثروبولوجيا تتسم بنظرة شمولية للمجتمع الذى يهتم به الباحث.
2- يهدف البحث الى التعرف بشكل أساسى على اساسيات فرع جديد يشكل أساس جوهرى فى الفكر الانثروبولوجى ألا وهو الفيلم الانثروبولوجى.
3- اثراء المكتبة الانثروبولوجية العربية ببحث جديد عن الانثروبولوجية البصرية خاصة اذا ما علمنا أنه لا يوجد على حد علم الباحث كتاب أو بحث عربى عن الانثروبولوجيا البصرية والفيلم الاثنوجرافى.

ثالثا: تحديد مفاهيم البحث

اذا كان الفن صورة من صور الثقافة فأن البصر هو الآخر صورة من صور الثقافة، فالعين هى التى تلاحظ وتشاهد كل ما يدور خارج الانسان من بيئة وعلاقات اجتماعية

وثقافية فى آن واحد. وبالتالى فان العين تشاهد الجمال والقبح وتعى هى الأخرى بالرومانسية والهمجية عن طريق تعبيرات الوجه .

فكأن العين هى التى تدل على الحقيقة التى يعيها الانسان بمختلف جوانبها. فالروائى ماهو الا مبدع ذى الهام حاد مختلف عن البشر خاصة فى تذوقه للجمال، فكأن هذا المبدع هو الذى يعرف عن الحقيقة الفنية الواقعية ما هو بعيد عن مدركات البشر.

1- **الانثروبولوجيا البصرية**: وقد عرفت الموسوعة البريطانية الانثروبولوجيا بأنها هى الدراسة الانثروبولوجية التى تقوم على دراسة الظواهر البصرية فى الثقافة والمجتمع من خلال وسيلة مرئية(5). وتم تعريف الانثروبولوجيا البصرية من قبل (رو اون) بأنها النشاط الثقافى حيث فنون السينما والعلوم الانسانية وتكنولوجيا المعلومات والتفاعل معها وتدرج فى الممارسات الاجتماعية البصرية على التقاليد العرقية لاجراء حوار الثقافات(6).

والباحث فى هذا الطار عرف الانثروبولوجيا البصرية بأنها العلم الذى يهتم بدراسة النشاط الانسانى بجميع ظواهره الاجتماعية والثقافية فى اطار من الرؤية البصرية مستخدما فى ذلك الفن السينمائي.

طرق وأساليب البحث فى جمع البيانات الخاصة بالانثروبولجيا البصرية:

1- استخدام الكاميرا الفوتوغرافية لانتاج صور عادية
2- استخدام كاميرا الفيديو لتصوير الأحداث
3- استخدام الكاميرات السينمائية
4- استخدام الكاميرات الديجيتال
5- استخدام أداة سلايت لتوضيح الصورة بكل أبعادها كى تعبر عن الواقع الملازم لها.

تساؤلات البحث :

تحاول الدراسة وضع عددا من التساؤلات وهى كالآتى:

1- ما هى العلاقة بين الادراك البصرى والثقافة؟
2- ما هو دور الصورة فى الفيلم الاثنوجرافى؟

النظريات المستخدمة فى البحث :

سيتناول الباحث فى بحثه هذا مجموعة من النظريات سواء كانت متعلقة بالأنثروبولوجيا من جهة أو متعلقة بالفنون من جهة أخرى وهذا ما يتيح للباحث نوعا من التكامل فى بحثه والنظريات هى :

ا- البنائية الوظيفية.
ب- نظرية عين الكاميرا .
ج- نظرية الانعكاس.

نظرية عين الكاميرا:

تشكل نظرية عين الكاميرا الأساس الجوهري لعلم الانثروبولوجيا البصرية علي اعتبار أنها تمثل الأساس لدى المشاهد فمن المعروف أنه يوجد عدة أطر لهذه النظرية ممثلة في الإعداد للفيلم والنص (سواء أكانت قصة أم رواية.. الخ) والمؤثرات الصوتية

والتي تؤثر علي حركة المشاهد ثم التصوير بكل أبعاده سواء أكان عدسة الكاميرا قريبة من الممثل أو متوسطة أو بعيدة عنه أو التقريب من وجه الممثل. بمعني أنها تأخذ العدسة ما يسمي بالزووم ثم يلي ذلك المونتاج والذي يتفاعل مع النص والحوار من خلال تقطيع بعض المشاهد. وبعد ذلك يأتي دور الجمهور وهم يشكلون البعد الأخير للفيلم علي اعتبار أنهم المتلقين للفيلم والمشاهدين له.

وبالتالي فالكاميرا هنا تلم بكل أواصر الفيلم من زواياه المختلفة فالمشاهد هو الذي يلاحظ كل صغيرة وكبيرة أمام الكاميرا من خلال متابعة مدى انفعالات الممثل وتعبيرات وجهه واجزاء جسمه ، كذلك فإن انتقال الكاميرا بزواياها المختلفة في الأماكن المفتوحة يجعل المشاهد يشعر بالراحة والرومانسية في حين نجد العكس إذا كانت زوايا الكاميرا توجد في أماكن مغلقة فهنا يشعر المشاهد بنوع من الانفعال الزائد خاصة في مشاهد المعارك أو الجريمة.

ومن هنا يرى الباحث أن نظرية عين الكاميرا من الممكن الاستفادة منها من خلال تصوير سلوكيات الأفراد ومدى انفعالهم اتجاه شيء معين، كذلك نفس الحال عند دراسة ظاهرة معينة من ظواهر الاحتفال بشعائر المرور أو الختان. كل ذلك من شأنه أن يفيد الفيلم الأثنوجرافي. لأن الفيلم الأثنوجرافي ما هو إلا تعبير أو هو مرآة حقيقية لحياة الإنسان. من خلال ملاحظة الأنثروبولوجي لجميع مظاهر الحياة. وعلي الرغم من أن مدة الفيلم الاثنوجرافي بسيطة للغاية . فهي لا تتعدي دقائق إلا أنها كافية لدراسة الظاهرة بأدق تفاصيلها. بل ورفع خريطة المنطقة من أرضية الواقع إلي الفيلم مباشرة مما يفيد الانثروبولوجي في عدم استغراق وقت كبير لرفع منطقة بحثه علي الخريطة.

نظرية الإنعكاس:

تأتي في المرتبة الثانية من حيث اختيار الباحث . حيث أنها تصب في مصلحة الأدب بدرجة كبيرة وهنا نرى أن الفيلم السينمائي حينما يتناول قصة أو رواية أدبية فأن ذلك يفيده من حيث معالجة قضايا معينة أو تتبع ظاهرة معينة كما هو الحال في ثلاثية نجيب محفوظ (قصر الشوق– بين القصرين– السكرية) أو زقاق المدق أو بداية ونهاية. كل هذه الأفلام مأخوذة عن روايات بنفس المسمي من الأديب نجيب محفوظ. ولا شك أن كل مخرج للفيلم يتناول القصة من منظور أدبي مشوق من ناحية ومنظور تجاري لجذب الجمهور. فالفيلم هنا هو للتثقيف من زاوية وتجاري من زاوية أخرى.

ونظرية الإنعكاس قد تعكس الواقع الذي يعيش فيه المجتمع وبالتالي فإن المخرج قد يأخذ لقطات من الفيلم تنم عن مكنونات الشخصية كما في الثلاثية مثل (السيد أحمد عبد الجواد). وهي شخصية الرجل القوي المسيطر علي زمام الأمور في حين نجد هذه الشخصية ليلا تميل إلي العبث والفجور فازدواج الشخصية نجده في هذه الروايات بكل معانيها كما أن توجيهات المخرج قد تخرج عن إطار المألوف بحيث تنصب لقطات الفيلم عن نوازع جنسية لدى شخصيات الرواية كما هو في (ياسين ابن السيد احمد عبد الجواد ... الخ)

وعلي ذلك يمكن القول أن الهدف الأساسي من اختيار هذين النظريتين كي تلائم البحث المراد بحثه. خاصة وأن من الصعوبات التي واجهة الباحث عدم وجود نظرية خاصة بالفيلم الاثنوجرافي إلي وقتنا الحالي مما يصعب من مهمة الباحث ويؤثر علي بحثه.

المناهج المستخدمة فى البحث:

يمكن القول ان الباحث سيستخدم فى دراسته هذه منهجين لدراسة موضوع الرؤية البصرية وهما كلآتى :

1ـ المنهج الانثروبولوجى فى دراسة المجتمع وهذا المنهج يساعد الباحث فى وصف الظاهرة وتحليلها ومعرفة الحقائق عن الظاهرة التى نحن بصدد دراستها.

وتتبع أهمية هذا المنهج فى الكشف عن مظاهر السلوك الخاصة بأفراد هذا المجتمع خلال فترات زمنية معينة وهل هى ثابتة أم اعتراها بعض التغيرات المصاحبة لها.

2ـ منهج تحليل المضمون. وهذا المنهج سسيولوجى يقوم على الوصف الموضوعى المنظم الكمى لمحتوى الظاهرة عن الاتصال كما أشار لذلك (بيرلسون)[7].

وتعتبر الأفلام السينمائية أحد المصادر الممتازة لهذا النوع من التحليل ويمكن صياغة ثلاث مفهومات تحليلية للعلاقات الاجتماعية:

ا- علاقات تتجه لشخص مباشرة.

ب- علاقات تتجه بعيدا عنه.

ج- العلاقات المضادة له.

وبعد ذلك يحاول الباحث ان يأتى بشواهد من الأفلام السينمائية تعبر عن هذه المفاهيم [8]. وهذا المنهج يستخدم فى تحليل الروايات من خلال الأفكار التى يعتنقها هؤلاء الأدباء ومدى ارتباط القيم التى يطرحونها بما هو موجود داخل المجتمع الذى يتم التعبير عنه.

المداخل المنهجية المستخدمة فى البحث:

وفى هذا الاطار سيتم استخدام مدخلين أساسيين عند تناولنا لهذا البحث وهما المدخل الوظيفى والمدخل المعرفى.

ا- المدخل الوظيفى:

وهو موضوع لب الدراسة التى نحن بصدد بحثها وهو يتعلق بمدى التشابك والتفاعل القائم بين أفراد المجتمع من خلال درجة التماسك بينهما. ويعد كل من (راد كليف براون– مالينوفيسكى) وهما من أنصار هذا الاتجاه. حيث نظرا الى المجتمع نظرة شاملة من خلال التعرف على الوظيفة التى يؤديها أفراد المجتمع فمثلا يشير براون الى أن أى نظام اجتماعى هو عبارة عن مجموعة من أنماط وقواعد السلوك التى تتصل بمظهر معين من مظاهر الحياة الاجتماعية وكما أن البناء الاجتماعى هو الذى يحدد هذه الحياة الاجتماعية فانها بدورها تحافظ على استمرار وجوده [9].

هذا من جهة البناء أما من جهة الوظيفة فنجد مليونوفسكى هو من أشار الى أن كل عنصر من عناصر البناء الاجتماعى له وظيفة معينة بمعنى أن الانسان له

احتياجات معينة فى الحياة وهى حاجته الى المأكل والمأوى والملبس والأمن والجنس وحاجته للغة.

2-المدخل المعرفى:

ويتميز هذا المدخل باهتمامه بالانسان من خلال تفكيره وليس سلوكه وبالتالى فنقطة بدء الدراسة المعرفية لثقافة ما هى البحث عن التصورات والمقولات والتصنيفات العقلية التى ينظم أفراد هذه الثقافة الظواهر المختلفة المحيطة بهم على أساسها والتى تبدو فى التركيبات المميزة للغة التى يتحدثون بها ولقد أطلق على هذا التجاه اسم (الاثنوجرافيا الجديدة) ومن علماء الاتجاه المعرفى (تشارلز فريك– ستورتيفانت)[10].

ويتشكل البناء المعرفى لكل فرد نتيجة بعض المحددات مثل البيئة الفيزيقية التى يعيش فيها والبيئة الاجتماعية التى نشأ فيها فالفرد الذى يعيش فى بيئة صحراوية يختلف البناء المعرفى عنده عن الانسان الذى يعيش فى مجتمع حضرى ، وكذلك تؤثر البيئة الاجتماعية فى التكوين المعرفى عند الفرد، فالبناء المعرفى للفرد الذى ينتمى الى الطبقات الدنيا ويقيم فى مناطق حضارية متخلفة يختلف عن البناء المعرفى للفرد الذى ينتمى الى الطبقة العليا ويقيم فى منطقة حضارية تتصف بالتنظيم الاجتماعى المتماسك[11].

فاذا نظرنا الى هذا الاتجاه أوالمدخل المعرفى ما هو الا كيفية اعمال الفكر فى العقل.اذن هو عبارة عن مدركات عقلية فى ذهن الأفراد الذين يعيشون فى مجتمع ما فنجد الفرد الذى يعيش فى مجتمع متخلف فان النقود هى التى تشكل حياته العامة فى حين نجد العكس بالنسبة للفرد الذى يحيا فى مجتمع غنى أو متوسط فان العاطفة تجاه الجمال والرومانسية نجدها واضحة فى هذا الاطار.

فكأن المعرفة الوجدانية تتولد فى ذهن الفرد من خلال بيئته التى يعيش فيها ومن رؤيته للواقع الذى يحيا فى اطاره وهذا مانجده فى عمل الأديب أو الروائى. وبالتالى فان الانثروبولوجيا البصرية تعمل فى اطار هذين المدخلين (الوظيفى– المعرفى) على أساس أن المنهج الذى يتبعه الباحث هو المنهج الانثربولوجى القائم على الوصف والتحليل لكل عناصر البناء والوظيفة ومعرفة سلوكيات وتصورات مدركات عقله من جانب آخر.

أدوات جمع البيانات:

ولقد استخدم الباحث فى بحثه مجموعة من أدوات البحث هى:

1- يعد الفيلم الاثنوجرافى هو أحد الأدوات الرئيسة لجمع البيانات فى الانثروبولوجيا الثقافية. ولما كانت هذه الأداة تمثل اتجاه حديثا الى حد ما فى الانثروبولوجيا بصفة عامة والانثروبولوجيا البصرية بصفة خاصة فان درجة اهتمام الباحث بها تشكل حجر الزاوية فى دراسته هذه.

2- تعد الأفلام السينمائية بصفة عامة مجالا خصبا للانثروبولوجيين خاصة تلك الأعمال الروائية التى تحتوى على كل تفاصيل الحياة بصفة عامة فهى بذلك من أدوات جمع البيانت التى تم الاعتماد عليها.

صعوبات البحث:

لاشك ان الانثروبولوجيا البصرية تعد فرعا مهما لعلم الانسان وان الانثروبولوجيا كعلم ليس استاتيكيا ولكنه ديناميكى بمعنى انه ليس علما جامدا وأنما نجده متغير وفقا لمتطلبات عصره . وبالتالى نجد الانثروبولوجيا البصرية فرعا ليس جديدا ولكن لم يلتفت اليه الكثير من شباب علماء الانثروبولوجيا حيث أنه لم يتبلور بعد افكاره الاساسية التى سيبنى عليها هذا العلم . ولكن ككل العلوم يوجد الكثير من الصعوبات التى واجهت الباحث فى بحثه وهى :

1- قلة عدد الكتب المنشورة باللغات الاوربية حول الانثروبولوجيا البصرية .
2- عدم وجود ابحاث عربية تناولت هذا الموضوع (وذلك على حد علم الباحث) وكذلك لا توجد مراجع عربية.
3- لا توجد دوريات علمية وصلت الى مصر تناولت مثل هذا العلم.

وبالتالى كان لزاما على الباحث ان يتناول هذا العلم ولو بجهد بسيط متواضع حتى ينير الطريق للذى يأتى من بعده من طلاب علم الانثروبولوجيا وغيره من العلوم الوثيقة الصلة بهذا الموضوع.

ولنتناول بشىء من التفصيل تاريخ هذا الفرع (الانثروبولوجيا البصرية).

تاريخ الانثروبولوجيا البصرية:

يمكن القول أن أحد الوثائق الاساسية للاستخدام الاكاديمى للفيلم كان من خلال (الفرد كورت هادون) عام 1898 فى دراسة لجزر توريس والتى عمل على التسجيل العلمى من خلال وسائل مختلفة مثل معدات التحدث عن صور فوتوغرافية وأفلام.

ولقد أستخدم (هادون) البحث المنهجى والاتجاه العلمى (الحياة القومية) فتفضيل الملاحظة المباشرة عن المبشرين والرحالة ، وبؤرة التقرير هو أدوار الباحث الحقلى والنظرى.[12]. ومنهنا نرى (هادون) أشار الى صناعة الأفلام من خلال ما أسماه (بالسينما مسى)؛ (أى أن المشاهد هو الذى يشعر أو يلمس الصورة)، وبالتالى فهو يشير الى نهج الحس والبصر، أى أن الانسان يشعر بالفعل ويشاهد الفعل فى الصورة . أى يوجد تكامل فى الفيلم من تصوير وصوت.

ثم أتسع نطاق الافلام الاثنوجرافية بعد الحرب العالمية الاولى وذلك من خلال أعمال كل من (مالينوفسكى- وبواس) ثم يليهم (راد كليف براون و مارسيل موس) من أن العمل الميدانى لابد وأن يشتمل على صورة وصوت لمشاهدة الواقع العملى سواء أكان ذلك من خلال الاحتفالات بمراسم الطقوس بكل أنشطتها وكذلك عمل مقاييس لاجزاء الجسم الانسانى (قبائل الكيكوتيل) وكذلك عناصر الثقافة المادية.

وبعد ذلك تلى هؤلاء العلماء من الانثروبولوجيين علماء آخريين أمثال (مارجريت ميد) منخلال أستخدامها وسائل الاعلام المرئية . وتلت هذه الحقبة من الزمن قبل الحرب العالمية الثانية آرهاصات كثيرة لمجموعة من العلماء التى مولتها الكثير من الدول الاستعمارية، أمثال (ايفانز بريتشارد) فى دراسته لقبائل النوير فى جنوب السودان. ثم بعد الحرب العالمية الثانية تواصل بعض علماء الانثروبولوجيا بتأصيل العمل الميدانى من خلال الصورة باعتبارها الاساس فى تشكيل حرفية الباحث الانثروبولوجى. ونجد ذلك كان مطبقا لدى كل من (بيت ريفرز) فى الخمسينات من القرن العشرين (العمل الميدانى فى جنوب اسبانيا).

ثم تبعه بعد ذلك مشروعا أكثر طموحا تمت المشاركة فيه كل من (بيتسون– ميد)؛ (التصوير الفوتوغرافى والسينما فى بالى– اندونيسيا) وعلى الرغم من الانتقاد الذى وجه اليهما. والذى كان متمثلا فى الجمع بين الصورة والكلمة الا أن هذا الفيلم يعد البداية الفعلية للفيلم الاثنوجرافى.

مع (روث بنديكت1947) معهد الدراسات الثقافية المختلفة والتى تستخدم السلوك للخدمة العامة . ودراسات زعماء القبائل.

ومما لاشك فيه ان الانشاء الحقيقى لعلم الانثروبولوجيا البصرية كان فى الولايات المتحدة الأمريكية فى السبعينيات من القرن العشرين كما أشار بذلك (روبى) وقد تم انشاء مجلة دراسات فى الاتصالات البصرية وكان ذلك عام 1974 واشتملت هذه المجلة على مجموعة من النقاط الرئيسة وهى:

ا- دراسة أشكال غير لغوية الانسان. فن الاتصالات خلال احتوائها على بعض التكنولوجيا البصرية فى جميع البيانات وتحليلها.

ب- دراسة المنتجات البصرية مثل الأفلام والنشاط المتواصل. وكأحد معطيات الثقافة القابلة للتحليلات الاثنوجرافية.

ج- استخدام وسائل الاعلام المرئية لعرض البيانات وبحوث نتائج البيانات (روبى وكالفن1974)[13].

ولقد تم تطبيق الانثروبولوجيا البصرية فى مجالات عدة منها انثروبولوجيا التعليم مثل (كولير) فى بحثها بعنوان التصوير الفوتوغرافى كوسيلة من وسائل البحث (عام 1967) كذلك الحال نفسه لدى سكان استراليا الأصليين فى السبعينات والثمانينات من القرن العشرين مجموعة من الأفلام البصرية الاثنوجرافية لدى كلا من (ايان دافلوب، روجرساندال، ديفيد ماكدوجال).

الا أن الانثروبولوجيا البصرية قد تم اعادة صياغتها وتشكيلها من جديد عبر زايا مختلفة من خلال استخدامها فى التطبيقات البصرية عن طريق استخدام تكنولوجيا بصرية جديدة . ونلاحظ فى كتابات كل من (مورفى والبنول1997) وبالتالى ظهر الفيلم الاثنوجرافى كانعكاس لأرضية الواقع مثل أفلام جان وتش وديفيد ماكدوجال[14].

ولاشك أن فترة التسعينات ومابعدها تعد فترة هامة فى انتاج أفلام اثنوجرافية كثيرة عكست ثقافة المجتمعات بجميع تفاصيلها حتى يمكن تتبع ظاهرة واحدة فقط فى مجتمع ما ومدى ما ينعكس عليها من سلوكيات تؤثر عليها.. ولذلك نجد هنا ثلاث أساليب

بصرية. وهى ماهى الصورة؟– وماهو مضمونها؟- ثم من الذى قام بالتقاط هذه الصور ومتى ولماذا؟ والأشخاص الذين يأتون ماذا تفعل معهم؟

التصوير وتحليل المناظر:

لقد أصبح التصوير أداة ضرورية للدراسة الحقلية فقد دأب الأنثروبولوجيون فى السنوات الأخيرة على التقاط الصور والأفلام السينمائية لتساعد على ايضاح مادتهم الاثنوجرافية والأفلام التسجيلية تعتبر بمثابة سجلات للخبرة فى الدراسة الحقلية وخاصة فى المواقف التى يصعب ملاحظة جزئياتها كما فى حفلات شعائر التكريس أو الشعائر الدينية أو الجنائزية حيث يصعب على العين المجردة ادراك هذا الكم الهائل من الجزئيات ، ومن ثم فان التصوير يخدم العديد من الأغراض وليس لمجرد تزويد الآخرين بما يحدث فى موقع ما عن كيفية المعيشة أو أسلوب الحياة والعادات والتقاليد والمظهر الفيزيقى.. الخ ولكنه على حد تعبير (باتس) وسيلة لتوضيح التفاعل القائم بين الأفراد والجماعات.

أن التسجيلات السينمائية تستخدم من أجل تسجل العناصر المتداخلة ، ولاشك أن أمعان النظر فيها ودراستها عن قرب وتكرار عرضها يمكن الباحث من الاطلاع على التفاصيل المرتبطة بالسلوك والتى لا يستطيع ادراكها بوضوح فى الملاحظة العابرة، كما يمكن الاعتماد عليه فى فحص التنوع الهائل للموضوعات (كيفية مسك الام لوليدها، كيفية اطعامه، حمايته ، التفاعل بين الاخوة والاخوات، قضاء وقت الفراغ، شعائر وطقوس أو ممارسات الحرب أو الصيد ..الخ[15].

ان الانثروبولوجيين قد اهتموا بتحليلات واسعة للفيلم كوسيلة اتجاه لدراسة الثقافة بصفة عامة فضلا عن مضمون الفيلم نفسه وعادة مايكون البحث أكثر صعوبة فى الوصف والمناقشة[16].

والفكرة الأساسية هنا تدور حول أن الدراسات الثقافية الأخرى تعمل على ادراك انماط للمقارنة بالرغم من التفاصيل الهامة التى تعتمد على هذه العلاقة لمثل هذه الانماط، فالانماط تستطيع أن ترى بواسطة الملاحظة الاولى والتفاصيل الهامة لهذا الترابط هو أن رءويتها يمكن تحليلها بدقة متمثلة فى الآتى:

1- ابحاث عن القواعد ومحتوى عناصرها الاكثر تكرارا.
2- الغلاقات التى تكون أكثر تكرارا.
3- البحث عن اتصال لتنظيمات رئيسية حتى تظهر متعارضة أو كلام متناقض.

بالاضافة الى أن المادة الخام للفيلم تعتمد على الملاحظة ثم الاستجابة الى السلوك الفعلى، وبالتالى فان دراسة محتوى الفيلمتكون حالة عامة فقط للفحص حيث تقوم الانثروبولوجيا العامة بفحص الثقافة المادية من خلال بحث التيمات ومستوى الرءوية لأى اشكال عامة فى الحياة الثقافية وانماط التفاعل لمثل هذه التيمات وبعض المبادىء الرئيسية مثل فحص حالة عينة من خلال (بندكت 1946) ومجمل الشرح من خلال ويلاند 1951 بين الاخرين بينما تمت مناقشة تحليل الفيلم من خلال باتسون وآخرون 1945[17].

عادة تكون الأفلام غنية ومعقدة بكمية معلومات وفيرة ودراسة الفيلم تكون أولية فهى تتعامل مع فحص الحوار ووصف الفعل وقيمة المعلومات الموجودة فيه مثل الموسيقى وتأثيرات الصوت والأشكل الفنية للفيلم مثل استخدام الكاميرات وتحليل تيمات الفيلم فضلا عن ذلك فانها ليست قضية أولية للاستجابة الفنية مثل التحليل الذى يعتمد على مسألتين أو قضيتين رئيسيتين كحالات أكثر سهولة ولكن ليست سهلة لأنها تخرج من المحتوى فى الممارسة والفعل المباشر والمقارنة والملاحظة الغير أساسية للمادة الخام والجمهور فى صنع أساس لمبادئه الشرقية وانعكاسه على هذه الملاحظة.

وآليات دراسة الفيلم الانثروبولوجى تكون بسيطة جدا من خلال فحص الفيلم نفسه ومراجعة البيانات وتسجيلها مع قراءتها بعناية كاملة لهذه العملية وقد تواجهه ثلاث صعوبات مشتركة أولا: ان ملاحظة الأفلام بعناية قد يكون عملها ممل وهذا عمل أساسى لايستطيع ان يقوم به حوار مساعد ثانيا: ان دراسة وصف محتوى الفيلم الانثروبولوجى به أسئلة مؤجلة بأشكال الثقافة المختلفة حيث ان محتوى الفيلم وأنماطه الأساسية لانستطيع معرفتها فى هذا الاتساع بمعنى أن محتواها لابد أن يكون ملحوظا. ثالثا: اذا كان الملاحظ متحيزا ومتحاملا بمعنى كيف يكون هوذات بؤرة ونظام لهذه الملاحظة تسجيل لمصدر الفيلم فانه يصنع حبكة روائية والشخصيات ومشهد سينمائى متتابع كبداية له والاجابة ليست نهائية لهذه الأسئلة الصعبة[18].

وعلى الرغم من أن المادة المادة الفلمية تمثل مشاهد حية للواقع المعاش لا تقبل الشك فهى لم تستثنى من شبهة الوقوع فى التزييف للواقع الميدانى ونقله بأمانة للمعمل التحليلى وهو ما أكدته لنا المناهج المتعلقة بالأنثروبولوجيا البصرية والقلق العلمى مبعثة دقة الوصف وحياده وعدم انحيازه لاتجاه بعينه وهناك نوعان من المادة الفلمية الأول الفيلم الاثنوجرافى الذى يمثل موضوعا متكاملا حول ظاهرة فلكلورية أو حرفة أو طقس ولايمكن التعرف على الموضوع بدون رؤية هذه المادة متكاملة وهو فيلم قد يستغرق عدة دقائق من واقع عدة ساعات تصوير . الثانى المقاطع الفيلمية أو لقطات الفيديو الحية وهو تصوير بعض الممارسات الشعبية ومونتاجها وعرضها فى مدة قد تتراوح ما بين 30 ثانيو و3 دقائق وتمثل هذه المدة فترة زمنية مناسبة لعرض احد عناصر الثقافة الشعبية كوسائل الانتقال أو رش الملح أو غربلة الوليد أو احدى التعبيرات الحركية[19].

نتائج البحث:

لقد تناول الباحث بالبحث والفحص موضوعا جديدا فى مضمونه وهو الانثروبولوجيا البصرية .والذى يعد أحد أبرز الفروع الرئيسة لعلم الانثروبولوجيا بحيث وجدنا أن جميع فروع الانثروبولوجيا لابد وأن تدخل فى طياتها أداة من أدوات علم الانثروبولوجيا البصرية (كالأفلام .والكاميرا .الخ).

ولقد توصل الباحث الى عدة نتائج متثقة الصلة بالانثروبولوجيا البصرية وهى:

1- أن الانثروبولوجيا البصرية كعلم من الممكن أن يتناول حياة الأفراد والمجتمعات بدراسة متأنية وتحليل لكل أبعاد حياتهم الاجتماعية والثقافية

2- أن الانثروبولوجيا البصرية تشكل مرآة شاملة لكل أحاسيس الناس ومدى ادراكهم للظاهرة تلك التى يتناولها الباحث الانثروبولوجى .على شرط تتبع الظاهرة بكل أبعادها
3- أن الفيلم الاثنوجرافى مازال فى طور نموه الأولى وعلى الرغم من ايجابياته الا أن له سلبيات متمثلة فى:

ا- أن الباحث الانثروبولوجى من الجائز أن تطغى عليه ثقافته وأحاسيسه على الظاهرة التى يريد أن يبحثها . وبالتالى قد يحدث صدام بين ثقافته وثقافة الآخر.

ب- قد يحدث نوع من التشويش فى مدركات الأفراد والمراد دراستهم اتجاه ظاهرة معينة وبالتالى قد يصعب على الباحث تتبع الظاهرة بنفس المعايير العلمية الملاحظة اتجاه الظاهرة نفسها وهذا ما نجده فى المجتمعات الريفية بوجه خاص.

4- من الملاحظ أن الانثروبولوجيا البصرية يمكن أن تتناول الثقافة بشكل عام وتفاصيل أدق خاصة عند تسجيل عادات وتقاليد وأعراف وقيم الناس ومعتقداتهم. وهذا مانجده مصورا على جدران المعابد فى مصر القديمة. فالثقافة كعلم تشكل أساس جوهرى للفيلم الاثنوجرافى.
5- تشكل لغة الفيلم الاثنوجرافى أساسا جوهريا لتوثيق اللهجات والاشارات لجميع الشعوب قبل اندثارها. وبالتالى على الباحث فى الفيلم الاثنوجرافى أن يبتعد عن لغة التشويق والاثارة بقدر ما يقدم من معلومات مهمة عن حياة الناس وثقافتهم.

وبعد

فالانثروبولوجيا البصرية كعلم قد قد يجذب فى السنوات القادمة الكثير من علماء الانثروبولوجيين الذين يريدون أن يبحثوا فى فرع جديد من فروع الانثروبولوجيا العامة حيث تساهم الانثروبولوجيا البصرية فى عملية التنمية والتخطيط وهذا مفيد من الناحية الملية والنظرية لكل من الدولة والباحث الانثروبولوجى..

وذلك لأن الفيلم الاثنوجرافى ينقل صورة واقعية حية لجميع المشكلات التى تعانى منها جميع المجتمعات وبالتالى يصبح لدينا فرعا جديدا داخل الانثروبولوجيا البصرية ألا وهو الانثروبولوجيا البصرية التطبيقية . حيث أن معرفة المشكلة من أساسها تساهم الى حد كبير فى حلها ووضع الخطوط العريضة لتجنبها من الأساس.

هوامش الدراسة:

1- علياء شكرى، المقدمة فى السينما الاثنوجرافية– سينما الغد ،جان بول كوين– كاترين دوكليبل، ترجمة غراء مهنا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2002، القاهرة ، ص6.

2- Jay Ruby: Visual anthropology: Edited by David levinson& Melvin Ember:Henry and company: new york: 1996:vol 13:p 45-51 .

3- علياء شكرى، المقدمة فى السينما الاثنوجرافية- سينما الغد، سبق ذكره، ص5-6.

4-William A.Haviland; Cultural Anthropology; Holt Rinehart and Winston; Newyork; 1981; p. 393.

5-Encyclopedia of Britannica.

6-WWW.VISANT.ETNOS.RU/ABOUT/PROJECT.
7- غريب محمد سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1983، ص149.
8- محمد الجوهرى– عبدالله الخريجى، طرق البحث الاجتماعى، دار الكتاب للتوزيع، القاهرة ط3، 1982 ص224.
9- فتحية محمد ابراهيم –مصطفى الشنوانى ، مداخل الى مناهج البحث فى علم الانسان (الانثروبولوجيا)، دار المريخ للنشر، الرياض 1988، ص116.
10- فتحية محمد ابراهيم وآخر، مداخل الى مناهج البحث فى علم الانسان، مرجع سبق، ص125.
11- محمد حسن غمرى، مناهج الانثروبولوجية، المركز العربى للنشر والتوزيع، الاسكندرية 1982، ص101.
12-Sarah Pink; The future of visual anthropology: engaging the senses ; Madison Ave Routledge ; New york; 2006; pp5-6.
13-I bid ;pp 1-10.
14-I bid ;pp 29,35.
15- فاروق اسماعيل، المدخل الى الانثروبولوجيا– النظرية والمنهج، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ب.ت، ص264.
16- John H.Weakland;Feature films as cultural document; In Paul hockings;(ed) Principles of visual anthropology; Walter degruytergmbh& co; berlin; 2003 p.59.
17- I bid ; p 53.
18- I bid ;pp 55-56.
19- مصطفى جاد، استخلاص العناصر الفلكلورية، فى أبحاث مؤتمر المأثورات الشعبية والتنوع الثقافى، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ، ط1 ، 2009 ، ص364- 36.

مراجع الدراسة

أولا- المراجع العربية:

1- علياء شكرى، المقدمة فى السينما الاثنوجرافية– سينما الغد، جان بول كوين– كاترين دوكليبل، ترجمة غراء مهنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، القاهرة.

2- غريب محمد سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1983.

3- فاروق اسماعيل، المدخل الى الانثروبولوجيا– النظرية والمنهج، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

4- فتحية محمد ابراهيم– مصطفى الشنوانى، مداخل الى مناهج البحث فى علم الانسان (الانثروبولوجيا)، دارالمريخ للنشر، الرياض1985.

5- محمد الجوهرى– عبد الله الخريجى، طرق البحث الاجتماعى، دار الكتاب للتوزيع، القاهرة ط3، 1982.

6- محمد حسن غمرى، مناهج الانثروبولوجية، المركز العربى للنشر،الاسكندرية.

7- مصطفى جاد، استخلاص العناصر الفلكلورية، فى أبحاث مؤتمر المأثورات الشعبية والتنوع الثقافى، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ط1، 2009.

ثانيًا- المراجع الاجنبية:

1- Encyclopedia of Britannica.

2- Jay Ruby: Visual anthropology: Edited by David levinson& Melvin Ember:Henry and company: new york: 1996:vol 13.

3- John H.Weakland; Feature films as cultural document; In Paul hockings ;(ed) Principles of visual anthropology ; Walter degruytergmbh& co; berlin; 2003.

4- Sarah Pink; The future of visual anthropology: engaging the senses ; Madison Ave Routledge ; New york; 2006;.

5- William A.Haviland; Cultural Anthropology; Holt Rinehart and Winston; Newyork; 1981;.

6- WWW.VISANT.ETNOS.RU/ABOUT/PROJECT.